نعمة المونتيسوري

رفاقي في الرحلة، قارئات وقراء هذه القصة، مثلكم مثل الكثيرين، بالطبع تتساءلون لماذا لم أعرض «آدم» على الأطباء؟ هناك عدة أسباب، أول سبب أن التأخر ومشاكل الحركة لم تظهر وتتأكد قبل أن أتم «آدم» عامه الثالث. قبل هذا، كان مثله مثل أي طفل يصل متأخرًا لعتبات النمو المختلفة. السبب الثاني أن طبيبته، أثناء الزيارات الدورية في أول عام ونصف، كانت تؤكد أن عضلاته سليمة وهيئته مضبوطة ولا يوجد داعٍ للقلق. السبب الثالث يعتبر رفاهية للكثيرين ولكنه أهم سبب بالنسبة لي، أردت أن أحافظ على ذكريات طفولة «آدم». لا أريده أن يكبر وأغلب ذكريات طفولته بين الجلسات والأطباء والبكاء ومشاعر الرفض وغيرها من معاناة الأطفال أمثاله في جلسات التخاطب والتأهيل المهني. أبدى «آدم» استعدادًا وترحيبًا بزيارة اختصاصية تخاطب وهو في السابعة من عمره. لم تكن تجربة مثمرة.

ساعدتني فلسفة المونتيسوري ونهجها في العمل مع «آدم» وتنمية مهاراته. اعتمدت بصورة أساسية على «الفترات الحساسة». ما هي «الفترات الحساسة»؟ من خلال عملها مع

الأطفال، لاحظت د. «ماريا مونتيسـوري» حالة من الهوس بشيء أو آخـر تنتاب الأطفال في فترات متلاحقة. كما لاحظت أن هذا الهوس يظهر فجأة ويختفي فجأة وبدون مقدمات. أطلقت «ماريا مونتيسوري» على هذه الموجات اسم «فترة حساسة» وهذه هي مواصفاتها:

- تشعر أن الطفل ازداد وعيًا بطريقة أو أخرى وكأنه نضج فجأة.
- تشعر كما لو أن هناك قوة خفية توجه اهتمام الطفل بعنصر معين في بيئته.
- تشعر أن الطفل وضع كل تركيزه في هذا العنصر واستبعد كل شيء آخر حوله.
- تشعر أن هناك شغفًا والتزامًا تجاه هذا العنصر.
- تشعر أن هناك شيئًا ما في لا وعي الطفل يحركه تجاه هذا العنصر ويلهمه طرق استكشافه والتفاعل معه ـ لا يمكنك منعه مهما حاولت!
- تجد أن الطفل يكثف نشاطه كله في التفاعل مع هذا العنصر لفترات طويلة بلا ملل أو تعب وكأنه يستمد طاقته من بهجة هذا التفاعل، لا تقاطعه!
- المرحلة الحساسة مرحلة انتقالية يتعلم الطفل من خلالها أشياءً محـددة، وبمجرد انتهائها لا يمكن استعادتها مرة أخرى.

قد تجد طفلًا دون الثانيـة من عمره لا يمل ولا يكل من استكشـاف السـلم ودرجاته صعودًا وهبوطًا وزحفًا وتسـلقًا. قد تجد طفلًا يضع كل ما يصادفه على أنفه ليشـم رائحته. قد تجد طفلًا آخـر مهـووسًا بمقبض البـاب، كل بـاب! لا يكـل ولا يمـل من فتـح وغلـق الأبواب باسـتخدام المقبض. هناك فترة حساسـة خاصة باللغة واكتسـاب مفرداتها، وفترة حساسـة أخرى لمحاولة معرفة الحروف وأصواتها والأرقـام ومعنى رموزها. هناك فترات حساسة للموسيقا والفن والمهارات الفنية!

كل الأطفال يمرون بنفس المراحل الحساسة ولكنهم يختلفون قليلًا في التوقيت! كان دوري هو مراقبة «آدم»، واستغلال الفترة الحساسة التي يمر بها لمساعدته على إتقان المهارة التي تستحوذ على اهتمـامـه، بتوفير العديد من الفرص _أنشطة وألعاب_ للتدريب على هذه المهارة!

كيف تراقب طفلك على طريقة المونتيسوري؟

س: متى تراقب طفلك وهو يلعب؟

ج: طوال الوقت

س: لماذا تراقب طفلك وهو يلعب؟

ج: لأن لعب الطفل هو عمله! لمعرفة الفترات الحساسة واهتمامات الطفل الفردية وقدراته ونموه، يجب عليك أن تراقبه يعمل.

س: كيف تراقب الطفل وهو يلعب؟

ج: في بيئة صديقة للطفل، سوف يكون متاحًا أمامه العديد من الأنشطة ليختار بينها. قد يختار الطفل تصفح كتاب، أو تشغيل أسطوانة موسيقا، أو ري الزرع، أو إطعام القط، أو تكوين أشكال بمكعبات الليجو، أو تنظيف الطاولات، أو غسيل الأطباق، أو الرسم، أو اللعب بالحروف المغنطة، وغيرها من الأنشطة المتاحة أمامه في بيئة تساعده على الاستكشاف والنمو والتطور.

عليك كشخص بالغ الانتباه للعب طفلك! لا تنتهز فرصة انشغال الطفل بنشاط ما للقيام بأعمال خاصة بك، اترك له مساحة للعب المستقل وراقبه من بعد! راقب اختياره للأنشطة – هل يفضل الكتب؟ الرسم؟ الموسيقا؟ النظافة؟ لعب الكرة؟ تصميم الأشكال الهندسية؟ اكتب ملاحظاتك في ورقة لتتابع تغير اهتمامات طفلك من يوم لآخر ومن أسبوع للتالي ومن شهر لشهر!

راقب المدة التي يقضيها الطفل في كل نشاط! هل طفلك يبدأ نشاطًا ثم يمله سريعًا؟ هل طفلك يبدأ نشاطًا ويستطيع التركيز حتى ينتهي منه؟ هل طفلك يكرر نفس النشاط؟ هل طفلك سعيد أم محبط خلال قيامه بهذا النشاط؟ كل هذه أسئلة تساعدك على تدارك أي خطأ في البيئة المحيطة بالطفل أو انحراف في شخصية الطفل، سأحكي لكم بالتفصيل عن انحرافات سلوكيات الأطفال فيما بعد.

عند مراقبة طفلك راقب نمو قدراته الحركية: الجلوس، الحبو، الوقوف، المشي، الجري،

النط، الرقص، والتوازن. كما راقب قدرته على استخدام يديه وأصابعه والتحكم في عضلاته الدقيقة: إمساك اللعب، وضع الأشياء في فمه، إمساك الأشياء بإصبعين فقط، إمساك الأشياء الصغيرة، فتح وغلق العلب والأدراج وأغطية الزجاجات الفارغة، استخدام المقص والإمساك بالقلم وغيرها من علامات النمو الصحي.

راقب أيضًا قدراته الحسية مثل رؤية الألوان وتمييزها، الإحساس بالأسطح والملمس والحرارة والبرودة والمذاق والأصوات المختلفة والروائح. مراقبة لعب الطفل تتيح لك فرصة لمعرفة قدراته العقلية ونمو إدراكه للأحجام والأوزان والخطر والمساحات والأطوال والأبعاد. كما تراقب ذاكرته وقدرته على الفهم وربط الأمور ببعضها.

تطور اللغة أيضًا تتم مراقبته من خلال اللعب: نطق حروف جديدة، محاولات الحديث الأولى، استخدام الكلمات وبداية تكوين جمل من كلمتين وثلاث. اللعب فرصة عظيمة لتنمية المهارات الاجتماعية من خلال المحاكاة والتمثيل وتبادل الأدوار وتنظيم فرص لقاءات لعب الأطفال. مراقبة لعب الطفل تتيح لك متابعة قدرته على التواصل مع من هم في مثل عمره وقدرته على المشاركة والاندماج.

مراقبة لعب الطفل مهمة للتعرف على جوانب مهمة من شخصيته، ينفر من ملمس الرمال، ينفر من ملمس العجين، ينفر من ملمس الورق، ينفر من ملمس الصمغ، يبكي عند ارتطام شيء بالأرض، يضحك عند فرقعة البالونات، وغيرها من الصفات الخاصة بكل طفل. معرفة هذه الأشياء سوف تساعدك في اختيار أنشطة تناسب ميول طفلك وتبتعد عما يؤلمه أو يزعجه.

هكذا كنت أراقب «آدم» ولهذا استطعت أن أُسخِّر أنشطة المونتيسوري لمساعدته. لم تكن لديَّ خطة محددة ولم أعرف ماذا سأقدم له بعد يوم أو أسبوع أو شهر. كنت حريصة كل الحرص على تقديم تجارب حياتية غنيه له من خلال زيارات المزرعة والنادي، ومن بعدها المتاحف والمعارض وأسواق الحرف، ومن بعدها المعالم السياحية وزيارة المحافظات.

لقد تميزت د. «ماريا مونتيسوري» عن غيرها، كما تميزت أنا عن غيري، بأنها كانت دائمًا تضع نفسها مكان الطفل، وكانت دائمًا تطلب من الطفل أن يعلمها ويوجهها. لهذا نجد

أن نهجها يحترم الطفل وقدراته وتوجهاته، كما أن خطوات تقديم أي نشاط من أنشطة المونتيسوري تقدم ببطء، ويقسم أي عمل إلى خطوات صغيرة يتدرب الطفل عليها واحدة تلو الأخرى. أثناء عمله، يستخدم الطفل أدوات حقيقية ولكنها مناسبة لحجم جسده وقوته وطول يديه وأصابعه. هذا هو سبب حبي الشديد لنهج المونتيسوري وسبب إضرابي عن الكلام عندما كنت في الثامنة من عمري.

كنت في الصف الثالث الابتدائي عندما تمنيت أن تنتهي حياتي أو أن تنتهي المدرسة أو أن يحدث أي شيء ينهي دوامة البؤس والشقاء، حياتي. أستيقظ في السادسة والنصف صباحًا، حتى أنزل من البيت في السابعة وربع، وأكون في المدرسة في السابعة والنصف، لأبدأ معاناة تستمر حتى الثالثة عصرًا، كل خمس وأربعين دقيقة تدخل معلمة مختلفة ويتناوبن في التلقين وطرح الأسئلة والتسميع، ونجلس نحن الأطفال في صفوفنا ننقل ونكتب ونتصبب عرقًا.

كنت أكره حقيبتي السوداء الجلدية المنتفخة بالكتب والكراريس، تسببت هذه الحقيبة في اعوجاج عمودي الفقري وأصبحت كشجرة مائلة لليمين. كنت أكره كتبي جميعها لأنها لا تمثل أي أهمية بالنسبة لي، كله حفظ. كرهت كذلك كراساتي وخطي القبيح والعلامات الحمراء على الصفحات. اشتقت إلى أشعة الشمس والخضرة واللعب والانطلاق. في هذا العام، اختبرت لأول مرة شعور موت جزء من الروح.

كنت تعيسة إلى حد التزوير! لقد زورت قطع الإملاء المنزلي، بدلًا من أن أجلس لكتابة قطعة يمليها عليَّ أبي أو أمي، قررت تأليف قطعة وأسميتها «الهروب». لم أستخدم أي كلمات لا أعرفها وأعطيت لنفسي الدرجة النهائية، ثم زورت إمضاء أمي عليها! انكشف أمري وتمت معاقبتي دون النظر إلى محتوى أول عمل أدبي لي ودون محاولة فهم دوافعي. ماذا يدفع طفلة هادئة مثلي للتزوير؟ ثم كررت فعلتي مرة أخرى عندما زورت درجة اللغة العربية ودرجة الرياضيات في شهادة الشهر وفي شهر آخر زورت إمضاء أبي على الشهادة.

كنت أقضي أمسياتي كلها في المنزل على مكتبي. على يميني تل الكراسات والكتب المطلوب مني استذكارها، وعلى يساري بقعة فارغة لأضع ما انتهيت منه من واجبات ثقيلة، وأمامي

الواجب المزعج المبهم القبيح! لم يعد هناك وقت للعب أو للنادي أو لأي نشاط من أي نوع! التهمت المدرسة حياتي كطفلة ولم أجد مخرج سوى الإضراب عن الكلام! قررت مقاطعة حياتي بمن فيها بهذا القرار اليائس تعبيرًا عن اعتراضي واستيائي!

لم ينتبه لي أحد! ما دمت أذهب إلى المدرسة وأجلس إلى واجباتي ولا يشكو من أخلاقي أحد فلأصمت دهرًا – إن شئت! ما بين النهر والزعيق والتهديد مضت أشهر صمتي. فجأة وجدت أمي تزيل السجاجيد عن الأرض وتبرمها وتضعها في ركن، وتخلي الدواليب من محتوياتها وتفرش الملايات على الكراسي والأرائك. لم أفهم ولم أقطع إضرابي، ولكني بدأت أسترق السمع وأراقب جيدًا ما يحدث حولي. سمعت كلامًا عن مدرسة أخرى وعن بلد آخر وعن ركوب طائرة! خفت، ولكني استمريت في إضرابي الذي لم ينتبه له أحد.

في يوم من الأيام استيقظنا جميعًا، وارتدينا ملابسنا الشتوية وتركنا المنزل، ولم نعد إليه إلا بعد تسعة أشهر! تسعة أشهر سعيدة جميلة في ولاية فلوريدا بأمريكا. أتذكر بكائي بشدة عندما أرادت أمي أن أرتدي زي مدرستي في مصر وأنا ذاهبة إلى مدرستي الجديدة أول يوم. قالت لي «لن يعرف أحد!»

التحقت بالصف الثالث الابتدائي تمامًا مثلما كنت في مصر ولكن شتان الفرق بين المدرستين شكلًا وموضوعًا! لا يوجد حفظ مباشر لأي شيء! جدول الضرب مثلًا وباقي العمليات الحسابية كنا نتعلمها في شكل ألعاب وأنشطة ومسابقات. كان يوجد في الفصل «كانتين» وهمي وكنا نمثل دور البائع والمشتري أغلب مدة حصة الرياضيات. أما العلوم، فكانت كلها تجارب حقيقية ورحلات ميدانية لجمع عينات من أوراق الأشجار والتربة والحشرات. المواد الاجتماعية كانت تقدم لنا على شكل قصص وأفلام وثائقية ومناقشات مفتوحة.

أتذكر عند عودتي أول يوم من المدرسة وكلي حيوية ونشاط وحماس، ولون بشرتي أحمر متوهج من الجري واللعب والحركة، سألتني أمي عن الواجب فقلت لها إننا لم نأخذ واجبًا. لم تصدقني! لم تصدق أنني لم آخذ واجب طوال مدة دراستي بالصف الثالث والصف الرابع. سألتني عن الكتب والكراريس فقلت لها إننا لم نأخذ شيئًا. لم تصدق أننا نترك كل شيء في الفصل وسوف نعود لنجده في اليوم الثاني والثالث وكل يوم. ثم كانت المفاجأة،

لا يوجد امتحانات، يوجد تقييم ومهمات ولكن لا يوجد رهبة وهيلمان ليلة الامتحان!

أسوأ ما في هذه المرحلة الجميلة من حياتي كان كتب المناهج المصرية التي أخذها والداي معنا حتى أستذكرها بجانب دراستي هناك! كان الفرق واضحًا وللأسف لم ترجح كفة المدرسة المصرية بمنهجها بنظامها بمدرسيها! لا أعرف مصيري إذا كان استمر إضرابي عن الكلام ولا أعرف كيف كنت سأواجه بؤس حياتي كطفلة في الصف الثالث الابتدائي في مصر!

انظروا إلى أطفالكم وضعوا أنفسكم مكانهم وقوموا بتقييم جودة حياتهم بكل حيادية ثم قوموا بالتغيرات اللازمة. بالتأكيد هناك ما هو أكثر وأفضل وأهم من المدرسة والواجبات والامتحانات!